تفسير القرآن باللّغة في تفسير ابن عطية الأندلسي

«سورة البقرة نموذجا»

الباحث عبدالعالي المزواري
باحث في العلوم الشرعية والتربوية
أستاذ الثانوي التأهيلي
دكتور في العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل، القنيطرة
المغرب

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد

فقد كان تفسير القرآن الكريم والاهتمام بدراسته في مقدمة اهتمامات علماء المسلمين على مدى القرون التي تلت نزوله، حيث ظهرت الكتب التي تبحث في القرآن من جوانب عدة: منها ما يبحث في أسرار الإعجاز القرآني، ومنها ما يبحث في قراءته المتعددة، وفي إعرابه ومعانيه ومنها ما يحاول الكشف عن مشكله وغريبه ولعل القرن السادس الهجري من أبرز هذه القرون في تاريخ الدراسات القرآنية المتعددة والمتميزة، لأنه شهد أربعة[1] من أهم مفسري القرآن الكريم يمثل كل واحد منهم مدرسة مستقلة في منهجها ومن أشهرهم القاضي ابن عطية رحمه الله .

وإن مما تميز به علمُنا قيد الدراسة، المفسر النحرير أعجوبة زمانه؛ القاضي ابن عطية رحمه الله في منهجه في التفسير اهتمامه باللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم[2]وفي هذا الإطار رُمت إلى ببيان منهجه اللغوي في ذلك، وإظهار ما تميّز به من حيث اللغة، وذلك من خلال تفسيره لسورة البقرة في كتابه الموسوم بالمحرر الوجيز.

وقد قسمت بحثي هذا إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة ، تناولت في المبحث الأول: التعريف بالمؤلِّف والمؤلَّف و المبحث الثاني: بيّنت فيه «توظيف اللغة العربية وأساليبها في المحرر الوجيز» وبه ستة مطالب: أولا: توظيف النحو ووجوهه الإعرابية في بيان معاني الآيات؛ ثانيا: الاشتقاق والتصريف؛ ثالثا: حمل المفردات على المشهور من كلام العرب؛ رابعا: علم البلاغة؛ خامسا: مراعاة السياق؛ سادسا: توظيف الشعر العربي؛ ثم خاتمة: بها أهم الخلاصات ، وقد جعلت عمدتي في البحث كتابه المحرر الوجيز فكنت أقرأ سورة البقرة فأنظر إلى مواطن تناوله للغة مستخرجا أهم ما بان لي بإمعان النظر .

وقد اتبعت المنهج الوصفي التحليلي الذي يتناسب مع طبيعة هذا البحث، فعلى بركة الله أشرع في المقصود.

المبحث الأول: التعريف بالمؤَلف ومؤَلَفه المحرر الوجيز.

المطلب الأول: التعريف بالمؤلف ومكانته العلمية

مصنف هذا التفسير الجليل هو القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام ابن عطية بن خالد بن عطية المحاربي الداخل. [3]

وقد نشأ ابن عطية في كنف أبيه، وتربى منذ الصغر على تعاليمه وتوجيهاته، محيطا بعنايته، وفر له رحمه الله أسباب الراحة، ويسر له النجاح، فاجتمعت الرعاية الحسنة وصدق التوجه وقوة العزيمة، مع سلالة الأرومة، حتى سعى لطلب العلم منذ اليفاعة ولازمه هذا الطموح حتى برزت مواهبه، وغدا شخصية علمية يشار إليها بالبنان، فكان رحمه الله يتوقد ذكاء، سابق الأمجاد فاستولى على الأمد بغلابة، ولم ينض ثوب شبابه، أدمن التعب في السؤدد جاهدا حتى تناول الكواكب قاعدا [4].

كان ابن عطية رحمه الله فقيها عالما بالتفسير والأحكام، محدثا عالي السند، لغويا عارفا بالنحو والأدب، مقيدا حسن التقييد، له نظم رائق، ونثر محكم رصين، ولي القضاء بالمرية، فكان غاية في الدهاء والذكاء، والتهمّم بالعلم، سري الهمة في اقتناء الكتب [5]، وكان رحمه الله من الرجال البارزين الذين أسهموا إسهاما فعالا في نشر العلم في ديار الأندلس حتى قال عنه السيوطي: هو الإمام الكبير، قدوة المفسرين[6]. وقال صاحب البحر المحيط أبو حيان عنه وعن الزمخشري: إنهما أجل من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير، وقد اشتهر كاشتهار الشمس.

إلى أن قال: وفي خطبتي كتابهما وفي غضون كتاب الزمخشري ما يدل على أنهما فارسا ميدان، وممارسا فصاحة وبيان... ويتابع فيقول: إذ هذان الرجلان هما فارسا علم التفسير، وممارسا تحريره والتحبير، نشراه نشرا، وطار لهما به ذكرا، وكانا متعاصرين في الحياة، متقاربين في الممات [7].

وقد اختلف في تحديد سنة وفاة ابن عطية، والراجح أنه توفي سنة (**546هـ**) في منتصف شهر رمضان المبارك، في مدينة (لورقة)، غرب مرسية، وقد بلغ ستين عاما، وعلى جلالة هذا التفسير فقد ظل مخطوطا إلى عهد قريب، ولم يتم تحقيقه وطبعه إلا في السنوات الأخيرة على يد أساتذة باحثين بجامعة الرباط بالمغرب، وذلك بأمر من أمير المؤمنين الحسن الثاني رحمه الله، فطبع في خمسة عشر مجلدا متوسط الحجم ثم ظهرت له طبعات لاحقة.

المطلب الثاني: مؤلف المحرر الوجيز

أشاد المترجمون لابن عطية بكتابه إشادة عظيمة، فوصفوه بأنه تفسير جليل الفائدة، وأنه أحسن التآليف وأعدلها، فقد قال أبو الحسن النبهاني: «وألف كتابه المسمى بالمحرر الوجيز في التفسير فجاء من أحسن تأليف وأبدع تصنيف»8 وأما ابن جزي الغرناطي : (ت741) في مقدمة تفسيره التسهيل لعلوم التنزيل : «فأما ابن عطية فكتابه في التفسير أحسن التآليف وأعد لها فإنه اطلع على تآليف من كان قبله فهذبها ولخصها وهو مع ذلك حسن العبارة مسدد النظر محافظ السنة »[9]ولعل ذلك راجع لكونه رحمه الله لخص وهذّب ما كان قبله من التفاسير، وغير ذلك من الأوصاف حتى قال بعضهم في حقه: «لو لم يكن له إلا التفسير لكفى» [10] وقد كان لتفسير المحرر الوجيز أثر كبير في التفاسير التي جاءت بعده، خاصة المدرسة المغربية فمنهم من قارب منهجه كأبي حيان الأندلسي، ومنهم من تأثر بمسائله العلمية، فنقل عنه الكثير من النقولات كالقرطبي بل هناك من اختصره مثل الإمام الثعالبي . ويعتبر «المحرر الوجيز» من التفاسير التي جمعت بين (المأثور والرأي) اذ كان يفسر القرآن بالقرآن والأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين

بحتري أقربها إلى الشرع ومقاصده، إضافة أنه اعتمد على الرأي في بيان القرآن بتوظيف اللغة العربية وفنونها من إعراب وبلاغة ونحوها. كما أن هذا التفسير جاء متوسطا بين المختصرات والمطولات وقد امتاز بسلاسته وأسلوبه فقد ابتعد فيه مؤلفه عن كل غموض وتعقيد، وتحرى أن يودع فيه كل ما هو أقرب إلى الصحة فأجاد رحمه الله وأفاد.

المبحث الثاني: توظيف اللغة العربية وأساليبها في المحرر الوجيز

المطلب الأولى: توظيف النحو ووجوهه الإعرابية في بيان معاني الآيات

اهتم القاضي ابن عطية في تفسيره باللغة العربية وفنونها أيما اهتمام، فكان يجتهد في حمل القرآن على الأوجه الإعرابية المشهورة المتواترة دون الشاذة والضعيفة سواء تعلق ذلك بالإعراب أو بالمعاني أو بغيرها من فنون اللغة ففي مجال النحو العربي: نجد ابن عطية يبذل وسعه في ذكر الوجوه الإعرابية في الآية، وبيان المذاهب النحوية من بصرية وكوفية وغيرها، فمثلا عند تفسيره قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ **[سورة البقرة آية 10 – 11]**

«ولا تفسدوا في الأرض معناه بالكفر وموالاة الكفرة، ونحن اسم من ضمائر المرفوع مبني على الضم، إذ كان اسما قويا يقع للواحد المعظم والاثنين والجماعة، فأعطي أسنى الحركات.

وأيضا فلما كان في الأغلب ضمير جماعة، وضمير الجماعة في الأسماء الظاهرة الواو أعطي الضمة إذ هي أخت الواو.. وألا استفتاح كلام، و «إن» بكسر الألف استئناف، وهم الثاني رفع بالابتداء، والمفسدون خبره والجملة خبر «إن»، ويحتمل أن يكون فصلا ويسميه الكوفيون: «العماد» ويكون المفسدون خبر «إن»، فعلى هذا لا موضع ل هم من الإعراب، ويحتمل أن يكون تأكيدا للضمير في أنهم فموضعه نصب، ودخلت الألف واللام في قوله: المفسدون لما تقدم ذكر اللفظة في قوله: لا تفسدوا فكأنه ضرب من العهد، ولو جاء الخبر عنهم ولم يتقدم من اللفظة ذكر لكان ألا إنهم مفسدون. قاله الجرجاني».[11]

وفي بعض الأحيان كان يرد أو يعترض على بعض الأقوال حين يعرضها، فمثلا عند تفسير قوله تعالى ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: 90]

يقول «واختلف النحويون في بئسما في هذا الموضع، فمذهب سيبويه أن «ما» فاعلة ببئس، ودخلت عليها بيس كما تدخل على أسماء الأجناس والنكرات لما أشبهتها «ما» في الإبهام، فالتقدير على هذا القول: بيس الذي اشتروا به أنفسهم أن يكفروا، كقولك: بيس الرجل زيد، و «ما» في هذا القول موصولة، وقال الأخفش: «ما» في موضع نصب على التمييز كقولك «بيس رجلا زيد»، فالتقدير «بيس شيئا أن يكفروا»، واشتروا به أنفسهم في هذا القول صفة «ما»، وقال الفراء «بئسما بجملته شيء واحد ركب فحبذا»، وفي هذا القول اعتراض لأنه فعل يبقى بلا فاعل، و «ما» إنما تكف أبدا حروفا، وقال الكسائي: «ما»، واشتروا بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه، فالتقدير بيس اشتراؤهم أنفسهم أن يكفروا، وهذا أيضا معترض لأن «بيس» لا تدخل على اسم معين متعرف بالإضافة إلى الضمير، وقال الكسائي أيضا: إن «ما» في موضع نصب على التفسير وثم «ما» أخرى مضمرة، فالتقدير بيس شيئا ما اشتروا به أنفسهم، وأن يكفروا في هذا القول بدل من «ما» المضمرة، ويصح في بعض الأقوال المتقدمة أن يكون أن يكفروا في موضع خفض بدلا من الضمير في به».[12]

وفي أحيان أخرى يرجح بعضها على بعض كما في قوله تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة آية 107]

«وقوله تعالى: أم تريدون: قالت فرقة: أم رد على الاستفهام الأول، فهي معادلته. وقالت فرقة أم استفهام مقطوع من الأول، كأنه قال: أتريدون، وهذا موجود في كلام العرب. وقالت فرقة: أم هنا بمعنى بل وألف الاستفهام، قال مكي وغيره: وهذا يضعف لأن «أم» لا تقع بمعنى بل إلا إذا اعترض المتكلم شك فيما يورده.

قال القاضي أبو محمد: وليس كما قال مكي رحمه الله، لأن «بل» قد تكون للإضراب عن اللفظ الأول لا عن معناه، وإنما يلزم ما قال على أحد معنيي «بل» وهو الإضراب عن اللفظ والمعنى، **ونعم ما قال سيبويه: بل هي لترك كلام وأخذ في غيره.**»[13]

المطلب الثاني: الاشتقاق والتصريف

يعتبر القاضي ابن عطية رحمه الله من المفسرين الذين اهتموا اهتماما كبيرا بتطبيق قواعد اللغة في تفسيرهم للقرآن الكريم، ويتجلى هذا من خلال أنواع علوم اللغة ومن أهمها ما يتعلق بتصريف الكلمة وأصل اشتقاقها كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [14]

«والنصارى لفظة مشتقة من النصر، إما لأن قريتهم تسمى ناصرة، ويقال نصريا ويقال نصرتا، وإما لأنهم تناصروا، وإما لقول عيسى عليه السلام "من أنصاري إلى الله" [آل عمران: 152، الصف: 4] قال سيبويه: واحدهم نصران ونصرانة كندمان وندمانة وندامى.

وأنشد: أبو الأخرز الحماني:

فكلتاهما خرت وأسجد رأسها... كما سجدت نصرانة لم تحنف

وأنشد الطبري:

يظل إذا دار العشي محنفا... ويضحي لديها وهو نصران شامس

قال سيبويه: إلا أنه لا يستعمل في الكلام إلا بياء نسب، قال الخليل: واحد النصارى نصري كمهري ومهارى»[15].

بل نجد ابن عطية رحمه الله كثيرا ما يرجح قولا في الآية ثم يستدل على ذلك بكون هذا القول موافقا لتصريف اللفظة المختلف فيها كما في قوله تعالى:

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سورة البقرة آية 227].

«قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: والتسريح يحتمل لفظه معنيين: أحدهما تركها تتم العدة من الثانية وتكون أملك بنفسها، وهذا قول السدي والضحاك، والمعنى الآخر أن يطلقها ثالثة فيسرحها بذلك، وهذا قول مجاهد وعطاء وغيرهما، ويقوى عندي هذا القول من ثلاثة وجوه: أولها أنه روي أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله هذا ذكر الطلقتين فأين الثالثة؟، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هي قوله: أو تسريح بإحسان، والوجه الثاني أن التسريح من ألفاظ الطلاق، ألا ترى أنه قد قرىء وإن عزموا السراح ، والوجه الثالث أن فعل تفعيلا بهذا التضعيف يعطي أنه أحدث فعلا مكررا على الطلقة الثانية، وليس في الترك إحداث فعل يعبر عنه بالتفعيل»[16]

فمن خلال هذا النص نلحظ أن القاضي ابن عطية مما رجح به كون «تسريح» بمعنى «تطليق» حيث استند إلى كون أصل اشتقاق الكلمة «تسريح» من فعل تفعيلا أي سرح تسريحا فدل هذا التضعيف على حدث مكرر عكس الترك فهو لم يحدث فعلا أصلا.

أو نجده رحمه الله يضعف قولا في الآية ثم يستدل لذلك بكونه مخالفا لتصريف الكلمة وأصل اشتقاقها ومن أمثلة ذلك: قوله الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 264]

«اختلف المفسرون في المراد بالربوة في هذه الآية؟، فقال مجاهد: الربوة المكان الظاهر المستوي، وقال الضحاك: الربوة المكان المرتفع الذي تجري فيه الأنهار، وقال السدي (بربوة) برابية من الأرض يريد المنخفض، وقال ابن عباس: الربوة المكان المرتفع الذي لا تجري فيه الأنهار. أما القاضي ابن عطية حينما تعرض لتفسير هذه الآية، رجح قول ابن عباس بأن الربوة هي المكان المرتفع، كما ضعف قول السدي واستدل على تضعيفه لهذا القول بأنه تفسير مخالف لأصل اشتقاق الكلمة فقال رحمه الله: «و(الربوة) ما ارتفع من الأرض ارتفاعا يسيرا معه في الأغلب كثافة التراب وطيبه وتعمقه وما كان كذلك فنباته حسن.. وقال السدي (بربوة) أي: برباوة وهو ما انخفض من الأرض، قال أبو محمد: وهذه عبارة قلقة ولفظ الربوة مأخوذ من ربا يربو إذا زاد يقال: ربوة بضم الراء»[17].

من خلال هذا النص يظهر لنا بوضوح اعتماد القاضي ابن عطية رحمه الله على أصل اشتقاق الكلمة، في تضعيفه لقول السدي الذي ذهب إلى أن معنى الربوة في الآية المكان المنخفض، ووجه ذلك أن هذا المعنى مخالف لأصل اشتقاق الكلمة، إذ لفظة «الربوة» مشتقة من الربا والتي هي من ربا يربوا بمعنى: الزيادة والارتفاع [18] وهذا يتنافى مع حمل الربوة على المكان المنخفض فكانت تلك قرينة واضحة على ضعف حمل الربوة على هذا المعنى.

المطلب الثالث: حمل المفردات على المشهور من كلام العرب

يعتبر القاضي ابن عطية من أئمة اللغة الفحول الذين فسروا القرآن الكريم، لذلك فإنه اعتنى بمباحث اللغة العربية في تفسيره فهو يعد من الخبراء في مذاهب اللغويين ذو معرفة واسعة بلغتهم وأساليبهم، وهذا ما أعانه على معرفة المشهور من لغة العرب وتمييزه عن الضعيف والشاذ، فكان كثيرا الاستدلال اللغوي بما غلب واشتهر من كلام العرب في أساليبهم كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ [سورة البقرة آية 195]

«قال علقمة وعروة بن الزبير وغيرهما: الآية فيمن أحصر بالمرض لا بالعدو. وقال ابن عباس وغيره بعكس ذلك، **والمشهور من اللغة** أحصر بالمرض وحصر بالعدو، وفي المجمل لابن فارس حصر بالمرض وأحصر بالعدو... فبعد أن عرض رحمه الله الأقوال نجده

يسير مع جاء في المشهور من كلام العرب ويرجحه على غيره فيقول: والصحيح أن حصر إنما هي فيما أحاط وجاور فقد يحصر العدو والماء ونحوه ولا يحصر المرض، وأحصر معناه جعل الشيء ذا حصر كأقبر وأحمى وغير ذلك، فالمرض والماء والعدو وغير ذلك قد يكون محصرا لا حاصرا» [19]

المطلب الرابع: علم البلاغة

إن علم البلاغة من العلوم الأساسية التي تكشف عن إعجاز القرآن اللغوي، وابن عطية، وإن لم يبلغ فيها مرتبة الزمخشري إلا أنه لا تفوته الإشارة إلى ما تضمنته بعض الآيات من أوجه البلاغة، من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [سورة البقرة آية 110].

قال: «معناه: قال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقال النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فجمع قولهم، ودل تفريق نوعيهم على تفرق قولهم، **وهذا هو الإيجاز واللف**».[20]

ومنه أيضا ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ۖ وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[سورة البقرة آية 92]

«قال: التقدير حب العجل، والمعنى: جعلت قلوبهم تشربه، هذا تشبيه ومجاز، عبارة عن تمكن أمر العجل في قلوبهم» [21]

المطلب الخامس: مراعاة السياق

اهتم ابن عطية بمعاني آي القرآن الكريم اهتماما بالغا فكان يربط معاني الآيات بعضها ببعض، مراعيا سياق الآية وسباقها ولحاقها ونمثل لذلك من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة البقرة آية 142]

«اختلف المفسرون في الشهادة المتوعد بكتمها في هذه الآية على قولين: أحدهما: أن الله تعالى شهد عندهم بشهادة لإبراهيم ومن ذكر معه من الأنبياء أنهم كانوا مسلمين، فكتموها والآخر: أنهم كتموا الإسلام وأمر محمد ﷺ وهم يعلمون أنه نبي ودينه الإسلام.

وقد رجح القاضي ابن عطية رحمه الله بأنها شهادة الله تعالى لإبراهيم ومن ذكر من الأنبياء معه أنهم كانوا مسلمين، **واحتج لترجيحه هذا بقرينة السياق**، فقال: «واختلف في الشهادة هنا نت هي؟ فقال مجاهد والحسن والربيع: هي ما في كتبهم من أن الأنبياء على الحنفية لا على ما ادعو هم، وقال قتادة وابن زيد: هي ما عندهم من الأمر بتصديق محمد ﷺ واتباعه، والأول أشبه بسياق معنى الآية».[22]

نخلص من صنيع ابن عطية هذا أنه رحمه الله لا ينظر في التفسير اللغوي إلى ثبوته في اللغة فحسب بل يراعي معه السياق القرآني حتى لا يهمل غرض المتكلم به سبحانه وتعالى من كلامه، فلكل كلمة معنى في سياق قد لا يصلح في سياق آخر.

المطلب السادس: توظيف الشعر العربي

اعتمد كثيرا على الشعر في تفسير معاني الآيات والمفردات، ولتعضيد المعاني اللغوية، كيف لا و"الشعر ديوان العرب" كما في الكلام المأثور، وهو أصدق شاهد على المعنى المراد من كلمة أو عبارة عربية، خصوصا إذا كثرت القرائن بكثرة الشواهد، وخصوصا إذا كانت هذه الشواهد من الشعر الجاهلي التي نزل القرآن بكلام من جنسه، وفيما يلي **أمثلة لتوظيفه للشعر في التفسير**:

أ. بيان معاني الآيات:

نجد القاضي ابن عطية كثيرا ما يستشهد بديوان العرب لبيان آي القرآن ومثال ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة آية 100]

قال: و«وراء ظهورهم مثل، لأن ما يجعل ظهريا فقد زال النظر إليه جميعه، العرب تقول جعل هذالأمر وراء ظهره، ودبر أذنه، وقال الفرزدق: تميم بن مر لا تكونن حاجتي بظهر فلا يعيا علي جوابها»[23]

ب. التعليق على الشواهد

لاحظت أحيانا أن ابن عطية رحمه الله يعلق على بعض الشواهد التي يسوقها بتفسير بعض ألفاظها ومثال ذلك: ما جاء في التفريق بين الميت بالتشديد والميت بالتخفيف بمناسبة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة البقرة آية 172]

وقال أبو حاتم غيره، وما قد مات فيقالان فيه، وما لم يمت بعد فلا يقال فيه ميت بالتخفيف.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه، **هكذا هو استعمال العرب**.

ويشهد بلك الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

ج. تعضيد الشعر للقواعد النحوية:

أما تعضيد الشعر لقواعد النحو العربي فنمثل له بما فسره ابن عطية رحمه الله[24] في تفسير قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ"[سورة البقرة آية 90]

قال: «ومصدقا» حال مؤكدة عند سيبويه، وهي غير منتقلة، وقد تقدم معناه في الكلام، ولم يبق إلا معنى التأكيد، وأنشد سيبويه على الحال المؤكدة:

أنا ابن دارة معروفا بها حسبي وهل لدارة يا للناس من عار»[25]

خاتمة:

تبين لي من خلال هذه الرحلة اللغوية الماتعة في تتبع الجانب اللغوي في تفسير سورة البقرة من خلال المحرر الوجيز للقاضي ابن عطية رحمه الله أن كتاب «المحرر الوجيز»، يمثل نضج الفكر الأندلسي في اللغة التي أخذ طابعها الأندلسي المتميز وقد استفاد منه من جاء بعده من المفسرين ولعل البحر المحيط للشيخ أبي حيان يمثل قمة هذا التأثر وهذه الاستفادة، كما أن المحرر الوجيز يعد خزانة علمية غنية في شتى العلوم وعلى رأسها لغة القرآن.

إنّ القاضي ابن عطية رحمه الله إمام في اللغة العربية، شهد له بذلك من ترجم له، وعلى ما نستشفه من براعة هذا العالم في ميدان النحو واللغة من خلال قراءة تفسيره المليء بالآراء النحوية، وبالمناقشات اللغوية المتفننة، أضف إلى ذلك كثرة شواهده الشعرية، ولا غرابة في ذلك، فقد كان هو نفسه شاعرا وأديبا، ولعل صنيع جلال الدين السيوطي حين ترجم له في طبقات اللغويين والنحاة له ما يبرره، فابن عطية رحمه الله «كان فقيها جليلا.. نحويا لغويا، أديبا بارعا، شاعرا مفيدا ضابطا. وألف تفسير القرآن العظيم، وهو أصدق شاهد له بإمامته في العربية»[26]

الهوامش:

1 . وهم الأندلسيان: الفقيه القاضي أبو محمد عبدالحق «541 هـ» والقاضي أبو بكر بن العربي «543هـ» وأبو القاسم الزمخشري «538هـ» وكتابه الكشاف، وأبو محمد البغوي«516هـ» وكتابه معالم التنزيل.

2 . وقد صرح رحمه الله أنه يرد التفاسير الخارجية عن مقاصد اللغة وما لا يقتضيه ظاهرها، فقد قال ابن عطية في بيان منهجه «وأثبت أقوال العلماء في المعاني منسوبة إليهم على ما تلقى السلف الصالح رضوان الله عليهم كتاب الله تعالى من مقاصده العربية السليمة من ألحاد أهل القول بالرموز وأهل القول بعلم الباطن وغيرهم فمتى وقع لأحد من العلماء الذين قد حازوا حسن الظن بهم لفظ بنحو إلى شيء من أغراض الملحدين نبهت عليه» «المحرر الوجيز: ابن عطية، ج1 ص10 -11».

3 . انظر: فهرس ابن عطية: 59 والصلة لابن بشكوال: 431 تحقيق عزت العطار.

4 . الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب: 1/ 133.

5 . الإحاطة للسان الدين بن الخطيب: 3/ 539والديباج المذهب لابن فرحون: 174.

6 . بغية الوعاة للسيوطي: 295.

7 . البحر المحيط لأبي حيان: 1/ 2120.

8 . التفسير ورجاله (ص 93).

9 . محمد بن أحمد بن جزي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، (5/1).

10 . فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (256/2).

11 . المحرر الوجيز (سورة البقرة 10-11).

12 . التحرير والتنوير: الآية 89.

14 . المحرر الوجيز الآية (1/306).

15 . المحرر الوجيز الآية (1/62).

16 . المحرر الوجيز (1/306).

17 . المحرر الوجيز الآية (1/358).

18 . كتاب العين (283/8).

19 . المحرر الوجيز (ص: 264).

20 . المحرر الوجيز (ص: 197).
21 . المحرر الوجيز (180/1).
22 . المحرر الوجيز (217/1).
23 . المحرر الوجيز (ص: 184).
25 . المحرر الوجيز (ص: 186).
26 . بغية الوعاة، (ص: 295).